ثالثا : العمارة المدنية (المساكن والقصور)

شهد بناء المساكن والقصور تطورا ملحوظا هو الآخر بالجزائر خلال العهد العثماني ، فقد نمت وتطورت الكثير من المدن وتوسعت حتى جاوزت المساكن فيها الأسوار ، فضلا عن إنشاء مدن أخرى جديدة كالبليدة والقليعة ، ويمكن أن نأخذ مدينة الجزائر كمثال لدراسة العمارة المدنية .

إن وصف مدينة الجزائر ومساكنها تحديدا موضوع تردد في كثير من الكتب التي تكلمت عن المدينة خلال العهد العثماني ، خاصة عند الكتاب الأوروبيين الذين لطالما أبهرتهم مساكن المدينة بتصميماتها الجذابة ، لكننا نجد أن تلك الأوصاف المتعددة جاءت متشابهة جدا لدرجة أنه بقراءة أحدها يمكن معرفة ما جاء في البقية ، فهي تجمع مثلا على أن كل مساكن الجزائر بنيت على نمط موحد ، وفي هذا الصدد يقول شالر : " والمنازل في الجزائر مخططة ومبنية كلها على نفس الطراز ، ووصف المنزل الذي أسكنه شخصيا سيعطي فكرة عن جميع منازل مدينة الجزائر التي لا تختلف إلا في الحجم وقيمة المواد التي بنيت بها " .

لقد استخدمت الجهة الغربية من المدينة وهي منطقة وعرة التضاريس شديدة الانحدار كمنطقة سكنية للأهالي من الطبقة المتوسطة ، والذين كانوا يمارسون غالبا الصناعات الحرفية والتجارة في أسواق المدينة ، وقد كانت هذه المنطقة سكنية بصفة شبه مطلقة ، فقد خلت من أي تجمعات اقتصادية باستثناء عدد قليل من محلات الحرفيين ، وهنا كانت الشوارع محدبة جدا و ضيقة لدرجة أنه في بعض الأماكن يمكن فقط مرور فارس على جواده ولا يمكن مرور شخصين متقابلين وجها لوجه إلا بالجنب .

لم تكن توجد بالمدينة ـ باستثناء ساحة الجنينة التي بلغ محيطها 100 خطوة ـ أية حدائق أو ساحات عمومية ، ويعبر تاسي(Tassy) عن هذه الظاهرة بقوله : " .... لا توجد أي ساحات أو حدائق بالمدينة بحيث أنه يمكننا وبدون مبالغة أن نجوب كامل المدينة عبر السطوح فقط ، وبالرغم من هذا الوضع فإن السرقة لا تنتشر بالمدينة لأنه إن وجد رجل غريب بالمنزل فإن مصيره الإعدام مباشرة " .

1 ـ الوصف الخارجي للمساكن :

لقد كانت مدينة الجزائر تسمى بالمدينة البيضاء لأن مساكنها كانت مبيضة كليا بالجير وحتى السطوح ، فالقانون الجزائري في ذلك الوقت يلزم السكان بتبييضها مرة واحدة في السنة على الأقل .

اصطفت المساكن المتراصة في الجزء الغربي من محور شارع باب الوادي ـ باب عزون بشكل تصاعدي نحو قمة الهضبة لتشكل ما يشبه مدرجا مثلثا قاعدته محور الشارع السابق ، وقمته حصن القصبة ، وقد كانت هذه المساكن مبنية أساسا من الحجارة والآجر الذي برع السكان في استخدامه ، كما أنها تتصل ببعضها بروافد (poutres) من خشب الشيا (شجر من عائلة الأرز - cèdre -) ، ورغم غياب أي استخدام للحديد بهذه المباني الغريبة كما يصفها فايدو (Feydeau) إلا أنها كانت تعمر أكثر من المباني الأوربية .

تكون هذه المساكن مؤلفة فضلا عن الطابق الأرضي من طابقين آخرين بصورة شبه مطلقة لأن القانون الجزائري حدد علو المساكن بطابقين على الأكثر ونادرا جدا ما تقل عن ذلك أيضا ، ونظرا للوضع السابق وهو توضع المساكن بشكل مدرج منحدر باتجاه البحر فقد تمتع كل السكان بمنظر البحر من سطوحهم دون أن يحجب أحدهم الرؤية عن الآخر ، وهذا كان أمرا هاما بالنسبة للجزائريين الذين كانت لهم متعة خاصة في منظر البحر والسفن ، وكذلك الأمر بالنسبة لأشعة الشمس التي كانت تطلع منذ اللحظات الأولى لشروقها على جميع المساكن .

لقد كانت المساكن مربعة أو مستطيلة المسقط في أغلب الأحيان ، ويمكن أن نتصور الواحد منها كمكعب له سقف مسطح مبيض كليا بالجير ، تبدو من الخارج صامتة متشابهة وبسيطة جدا ، تخلو من أي تفاصيل بارزة توحي بالتميز كما تخلو من النوافذ المطلة على الشارع ، ونستثني من ذلك بعض الفتحات الصغيرة الضيقة التي تتقدمها شبابيك معدنية كانت مخصصة لإنارة غرف الخدم وغرف المعيشة .

كما قلنا سابقا فإن مساكن الجزائر بنيت وفق نمط موحد وثابت ، والاختلاف الوحيد بين مسكن وآخر كان في الحجم وقيمة مواد البناء ، فمنازل الأغنياء كانت كبيرة

وأفنيتها فسيحة ، واستخدمت فيها المصنوعات الخزفية والرخامية بكثرة ووفرة ، ولأن سكان المدينة تنافسوا في تزيين مداخل سكناتهم فقد كان من الصعب تمييز المساكن الفاخرة من المساكن العادية إلا بدخولها ، وقد كانت هذه المداخل عبارة عن أبواب خشبية ثقيلة جدا ومصمتة زينت بمجموعة من المسامير النحاسية الكبيرة ذات رؤوس نصف كروية مفصصة ، وفي وسطها كانت حلقة الباب من النحاس أيضا ، تحف هذه الأبواب إطارات رخامية أو حجرية تتكون أساسا من عضادتين مربعتي المسقط يحملان عقدا نصف دائري تتوسطه صنجة على شكل فقرة نقشت عليها صورة الهلال متجها للأعلى ، ويمكن القول بأن هذه المداخل كانت العنصر الجذاب الوحيد والمميز لهذه المساكن من الخارج ، ويوجد غالبا مدخل واحد للمسكن الواحد .

كانت أغلب المساكن تضم بروزا للأمام (encorbellement) في الطوابق العليا ولأن الشوارع ضيقة جدا فكثيرا ما تلتحم المساكن المتقابلة ليصبح الشارع هنا ممرا مسقوفا مقببا وهو ما يعرف بالساباط ، هذا البروز كان يقوم على جذوع من خشب الأرز بحيث تصل طرف البروز بالجدار .

وإذا قلنا أن المساكن الجزائرية بنيت كلها وفق طراز موحد فلنا أن نطرح هذا السؤال هنا : من أين اشتق الجزائريون هذا التصميم الموحد ؟ ، والحق أن الجواب عن هذا السؤال صعب جدا ، ذلك أن من وصفوا المدينة بعد إعادة اختطاطها إلى غاية بداية القرن 16 لم يهتموا بوصف مساكنها إلا ببعض العبارات العامة مثل الجمال والأناقة ، ومن خلال المعطيات الظاهرة يبدو أن هذا النمط في بناء المساكن ظهر في الجزائر مع نهاية القرن 15 ، وهو تاريخ يرتبط بنزوح مسلمي الأندلس عنها والذين استقر جزء كبير منهم بمدينة الجزائر ، وقد ذكرنا سابقا أنهم نبغوا في مختلف الحرف والصنائع ومنها البناء .